المصدر: الـــــوطـــــن
التاريخ : ١٩٨٤/٤/٣

السادات ممثلا

ان يقــوم الممــثل بدور الزعيــم فهــذا هو العــادي والمتكــرر
امــا ان يقــوم الزعيــم بدور الممثل فهذا هو غير المألــوف

يقول بعض علماء النفس بأن هناك تشابها واضحا بين قدرات المبدعين بوجه عام وبين الزعماء والقادة، اي ان القيادة والزعامة من مظاهر الابداع والحق ان الترجمات الذاتية والسيرة المكتوبة لكثير من زعماء العالم وقادته تنبينا بالفعل ان الزعماء غالبا ما مارسوا الابداع في احد اشكاله الفنية او العلمية المعروفة.

بقلم: عايدة الشريف

فنيرون كان يعزف على القيثارة - حتى - وهو يحرق روما، وبنيامين فرانكلين احد رؤساء الولايات المتحدة في القرن الماضي، اخترع مانعة الصواعق، وماوتسي تونغ كان شاعرا وكذلك سيمون بوليفار محرر اميركا اللاتينية من قبله، وتشرشل كان يهوى الرسم، وموسوليني كان يحاول ان يكون كاتبا مسرحيا.. وكذلك نجد عندنا في الشرق ان احد خلفاء بني امية وهو الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان كان شاعرا نواقة ومغنيا، وحكم بعد عمه هشام بن عبدالملك.. وقد غرق اثناء حكمه في الشعر والشراب وحب الحياة ولذاتها وبهارجها وانصرف عن جدها حتى لم يعد يعرف من الدنيا سوى انها لعب ولهو. ومن اشعاره في هذا المنحى الذي ادى به الى نهاية مأساوية:

اصدع نجى الهموم بالطرب ... وانعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش في غدارتـه ... لا تقف منــه اثــار معتقــد

وفي تاريخ مصر الحديث نجد ان الاستاذ الراحل احمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة التي حملت مشعل الوطنية الصادقة في ثورة ١٩١٩ حتى اسلمته لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان شغوفا بكتابة المسرحية ولكنه اكتفى بترجمة مسرحية «سلطان الظلام، لتولستوي، وفتحي رضوان، قطب الحزب الوطني الجديد الذي هو امتداد لصاحب اللواء الاول مصطفى كامل، كتب مسرحية «شقة للايجار» قدمها المسرح القومي على خشبته، وكذلك نجد ان عبدالناصر بدا وهو في المدرسة الثانوية كتابة مسرحية عن كفاح اهل رشيد ضد حملة فريزر سنة ١٨٠٧، وقد اتمها بعد ثورة ٥٢ بدلا عنه الكاتب عبدالرحمن فهمي تحت اسم في «سبيل الحرية» وحصل بها على جائزة الدولة التشجيعية.

واذا كانت اراء علماء النفس في ان هناك تشابها واضحا بين قدرات المبدعين والزعماء والقادة قد صحت.. فهل لنا ان نوسع رقعة قولهم فنسحبه على وجود تشابه بين الزعماء وبين الممثلين في كل المجالات؟

قد يبدو هذا الزعم بعيدا عن الصواب لاول وهلة، على الرغم مما يسانده ظاهريا من ان رئيس احدى الدولتين العظميين في العالم وهي الولايات المتحدة الاميركية كان بالفعل ممثلا غير مرموق.. فهذا وان قيل انه لا يمكن ان يحدث الا في الولايات المتحدة.. فهو استثناء لا يمنع من ان تكون قضية التشابه بين قدرات الممثلين والقادة واردة اجمالا.. لان كلا الشخصين - الزعيم والممثل - يتميز بميول استعراضية واضحة، وكلاهما يحب الظهور امام الجمهور واظهار قدراته وطاقاته، والمباهاة بها امام الناس، سواء كان ذلك بشكل واع يشعر به الزعيم ام بشكل لا شعوري لا يعيه، فظهور الرئيس السابق كنيدي امام الناخبين كرب اسرة مع الزوجة «جاكلين» الحامل.. جعل الناخب الاميركي يتعاطف معه ويهبه صوته الانتخابي.. اما الصورة الخالدة لزعيم يقبل طفلا او يربت على ظهر عجوز.. فهي غالبا من صنع مديري الدعاية لهذا الزعيم او ذاك كرمز لحنوه على الاطفال والشيوخ وهو ما يتطلبه الناخب في الرئيس ويتلمسه عند الزعيم.

وذلك وان كان لا ينطبق على كل الرؤساء والزعماء فقد كان عبدالناصر غير مستعد عندما التحق بكلية الحقوق ان يواظب على محاضرات اللغة الفرنسية فقط لانه شعر وهو يسمع نطقها.. كأنه يمثل دورا نسائيا لو نطقها - الا انه ينطبق على معظم الرؤساء في اغلب الاحيان. ومن ابرز الامثلة التي نطبق عليها ذلك، الرئيس الراحل انور السادات الذي يهمنا في مناسبة نشر ما يناقض بالتمام ما كان ينادي به من الاخلاق العائلية، ان نظر هذا الجانب المجهول، فنتحدث عن السادات مثلا.

كثيرا ما قام الممثلون بادوار الرؤساء والزعماء في المسرح والسينما والتلفزيون والاذاعة.. ولكن من النادر ان يقوم الرئيس بدور الممثلين على المسرح الكبير.. الحياة. الا ان هذا هو ما وجده انور السادات مثلا اعلى لنفسه. الا وهو التمثيل على كل المستويات وفي كل المجالات.. وبشكل كوميدي في اغلب الاحيان.. لدرجة ان الكاتب الساخر محمود السعدني جعل ظهور السادات في الحياة المصرية سببا لانحسار فنون الكوميديا.. نتيجة استقطاب السادات لجمهورها وربما كان هذا هو ما دعا نجم الكوميديا عادل امام لان يقحم شخصية السادات في مشهد المحاكمة بمسرحيته «شاهد ما شفش حاجة» حتى يسترد جمهوره والذي استتبع عليه ايقاف المسرحية وحكم بسجنه ثلاثة شهور تمكن القضاء من عدم تنفيذها.

واذا لاحظنا ان كثيرا من الشباب، بل وحتى الاطفال كانوا يقلدون الرئيس السادات في خطبه وحركاته وسكناته. لدلنا ذلك على ان السادات لم يكن متقنا لدوره الذي كان يحتله طول الوقت امام الشعب المصري.. فالانسان لا يقلد ما يعجبه حتى لا يفقده الطلاوة بينما هو دائم التقليد للنماذج الفاشلة التي لا يرضى عنها.. ولم نسمع مثلا ان احدا قلد الرئيس جمال عبدالناصر. لانه لم يكن يمثل بل كان يعيش بالفعل دور الزعيم بكل انفعالاته وما يفرضه من جلال ومهابة - حتى - على المختلفين معه.

وربما كانت قدرة التمثيل عند السادات هي التي خططت له دورا بارزا في ثورة ٢٣ يوليو.. فقد تم اختياره لالقاء البيان رقم واحد للثورة لقدرته على الالقاء والاداء المؤثر، وان كان هناك تفسير اخر خفي لاختياره لهذه المهمة ويمكن ان نشير في هذا الصدد الى جذور المسألة في حياة السادات الشخصية، حينما كان يحاول ايقاع زوجته الثانية جيهان في غرامه.. في اوائل الخمسينيات.. فقد كانت جيهان تدفع في وجه من لاموها من صويحباتها في حي الروضة.. لاقدامها على الزواج من صعلوك لا مستقبل له هو «انور السادات» لانه كان مطرودا حينئذ من الجيش.. كانت جيهان تدفع بما كان يقوله لها من انه سيعود الى الجيش بعد شهور وبعدها سيقوم بثورة تطيح بالملك فاروق.. وكان هذا بالطبع هو الكلام الذي خدرها به السادات لانه كان يطمع ان تشاركه مغامراته الثورية تلك.. وجه جديد لفتاة جميلة من ارقى احياء القاهرة في ذلك الوقت ونجح في ذلك وجعلها تقبل بالخطبة له بعد ان فسخت خطوبتها لمصطفى كامل مراد زعيم حزب الاحرار الذي حاول السادات ان يجعله نجم المعارضة الاوحد باعتباره غريمه المنهزم الذي لن يجرؤ على مناجزته بطريقة جدية في لعبة الحكم او السلطة.

تفسير خفي

نأتي الان للتفسير الخفي لسبب اختيار السادات لالقاء بيان الثورة الاول. من المعروف والذي نشر في مذكرات الكثيرين ممن كتبوا وشاركوا في ثورة ٢٣ يوليو.. ان السادات تهرب من الانضمام لزملائه في ساعة الصفر بطريقة فريدة فقد ذهب ليلة ٢٣ يوليو الى سينما الروضة الصيفية ليشهد عرضا مستمرا لثلاثة افلام.. تنتهي في الثانية صباحا.. ولم يكتف بذلك بل اختلق مشاجرة بينه وبين احد الافراد زعم انه يعاكس زوجته جيهان.. وذهب الى قسم بوليس الروضة ليحرر محضرا بذلك مصطحبا معه اثنين من الشهود ليثبت وجوده في مكان اخر بعيدا عن تجمع رجال الثورة.. في حال فشل الثورة.. في نفس ذلك الوقت كان جمال عبدالناصر يمر على زملائه شخصيا بسيارته الاوستن القديمة.. ومر على السادات ولم يجده فترك له تعليمات لكي يلحق بهم. ولكنه لم يفعل لانه كان يدبر ان يبقى بعيدا حتى اذا ما احترقت اوراق الاخرين من زعماء الثورة لم يبق الا هو.. وربما كان فهم عبدالناصر لهذه الالاعيب الساداتية هو الذي جعله يطلب منه في صبيحة ٢٣ يوليو بأن يلقي البيان الاول حتى يكشفه مورطا اياه في ثورة ٢٣ يوليو.. بعد ان كان قد قرأه احد الضباط المغمورين ولم يحسن الالقاء او «التمثيل».

ويتضح فهم عبدالناصر لجبل السادات في الواقعة التالية التي اراد فيها عبدالناصر ان يرعب السادات ويؤنبه على تهربه ليلة الثورة.. فقد حدث عندما قامت الثورة وتقرر وضع بعض رجالها مشرفين على الصحف.. وكان نصيب السادات جريدة الجمهورية ان ارسل عبدالناصر اسماء وصور اعضاء مجلس الثورة لنشرها بجريدة الجمهورية ولم يرسل ضمنها صورة السادات ولا اسمه طبعا.. مما جعله على شفا الجنون لتصوره ان عبدالناصر شطب دوره واسمه وصورته من بين اعضاء مجلس الثورة.. اتصل السادات بعبدالناصر اكثر من مرة يسأله هل الصور والاسماء التي ارسلها تمثل كل اعضاء مجلس الثورة وانه لم يغفل او ينسى احدا منهم.. وفي اخر مكالمة اشفق عليه عبدالناصر من الجنون فقال له: الا تعرف اسمك ولديك صورة؟ عندها تنفس السادات الصعداء.. وظل السادات بعدها وطوال ايام عضويته يحدد حياته المعيشية في الذهاب الى مجلس

الامة ونادي الجزيرة لممارسة لعبة اليوجا ليطيل شبابه حتى يتمكن من الانقضاض على السلطة في يوم ما. ولا بد انه قرأ ما كتبه المؤرخون عن خروشوف من انه افلت بدهائه من ستالين.. وتصفيته الجسدية لرفاقه في الحزب.. فقد كان يختفي عن وجهه فترات طويلة متقطعة يذهب فيها الى بلدته.. حتى عاش وتسلم السلطة عقب وفاة ستالين فهذا هو نفسه ما اتبعه السادات بانغلاقه على اقربائه واصدقائه واساتذته وتدبير امر توليه السلطة.. لينفتح عليهم بعدها اصدقاء سجن.. ومعلمين واهل قريته ابو الكوم.. وتمثيل دور ابن البلد البار بمسقط رأسه.. ولا يستبعد ان يكون السادات على صلة بالطبيب الذي كان يقوم بتدليك ساقي عبدالناصر ويشك في استعانته بالسم البطيء للتعجيل بنهاية حياته.. لان السادات اودع هذا الطبيب بعد انكشاف دوره القذر المعتقل فترة ثم افرج عنه بعد المبادرة.. لانه كان منفذا لخطة اسرائيل ايضا بالاطاحة بعبدالناصر.. مع انه كان كقاتل لزعيم ايضا يستحق الاعدام.

السادات كان راغبا اشد الرغبة في ان يكون ممثلا.. وليس هذا من ادعائنا او ادعاء مراقبيه، بل القول الفصل في فتح ملفه وقراءة ما كتبه هو نفسه.. فقد نشرت مجلة «الاثنين والدنيا» في اعدادها عن مسابقة «للوجوه الجديدة.. صورته مرفقة بهذه الكلمات «ضابط اسمر وسيم، يجيد ركوب الخيل، واللعب بالسلاح ويهوى التمثيل التراجيدي والكوميدي والرقص الشرقي والافرنجي».

وهذا الموقف وان دل على تعجل السادات للاضواء.. فقد كان موضة اللحظة.. حيث كان قد سبقه الى السينما من الجيش والبوليس الاخوة ذو الفقار.. وبدر لاما وابنه.. واذا كان هذا قد حدث قبل الثورة.. فقد شوهد بعدها يتردد ببدلته البيضاء على العوامة التي كان يسكن بها الراحل «ابوالمجد» استاذ الالقاء بمعهد الفنون المسرحية.. الذي كان يقوم لغته ويعلمه مخارج الالفاظ الحلقية وسقف الحلقية التي تبدي تدربه عليها في خطبه وكلمات.

تقمص من ؟

ومن المعروف للعامة والخاصة ان زكريا الحجاوي جامع الفن الشعبي المصري ومظهره للوجود كان صديقا قديما للسادات وله عليه اياد بيضاء، فقد علمه المخاتلة والتنكر ايام هروبه من تهمة قتل امين عثمان، واشترك الحجاوي

في اخفائه عن اعين الشرطة في الاربعينات وهو احد المصادر التي استمد منها السادات ثقافته، وتعبيرات السادات الشهيرة: العيب واخلاق القرية والاصول والقيم وديوان المظالم والتصحيح وصينية الاكل التي يقدمها الجيران لاهل المتوفي.. كلها من تأثير زكريا الحجاوي.

ويحكي كاتب سياسي شهير انه كان من عادة جيهان زوجة السادات وطوال سنوات عضويته لمجلس الثورة ونيابة لرئيس الجمهورية ان تذهب مع اصدقائها الى حي الحسين في ليالي رمضان.. حيث تقام الخيام ويقدم في سرادقاتها الفن الشعبي على جميع اشكاله.. وعندما تولى السادات الرئاسة تصور هؤلاء الاصدقاء ان جيهان ستكف عن هذه العادة، ولكنهم فوجئوا بها تتصل وتعلمهم بأنها لن تقطع هذه العادة.. فصحبتهم متنكرة وراء نظارة سوداء وغطاء رأس الى الشادر الذي يقدم فيه زكريا الحجاوي المغنين الشعبيين.. بنبذة عن هذا الفن واصحابه واخلاقهم واصولهم وقيمهم.. وتصور الاصدقاء ان زكريا بهذه الكلمات انما يريد السخرية من السادات.. وكانوا على اهبة الذهاب اليه للفت نظره الى ان السيدة جيهان تسمع سخرياته.. لو لا ان احد العارفين منهم همس في اذانهم ان ما يتصورونه هو العكس اي ان السادات.. هو الذي يمثل دور زكريا في خطبه وكلماته.

وربما كان هذا هو سبب ما فوجئ به زكريا بعد ذلك وفي وقت ظن ان الحياة قد طابت له اخيرا - اي تولى السادات احد تلامذته الرئاسة - بمنع اذاعة اعماله الفنية في الاذاعة بقسوة، ثم فوجيء بفصله من وظيفته بخشونة، ولان المصائب لا تجيء، فرادى على من ينفع للبشر «كبرومثيوس» او المنبع التمثيلي المخصب للرئيس، فقد انهار المنزل الذي يسكن فيه ولم يستطع رغم كل الجهود التي بذلها العثور على مسكن اخر، فادرك زكريا بفطنته ان اعتلاء تلميذه كرسي الرئاسة يعني ان زمانه قد ولى وان نهايته قد حانت، واضطر مرغما الى مغادرة مصر ليجد في الدوحة على شاطيء الخليج ملجأ امينا، ولكن قلبه ورئته لم تتعودا هواء غير هواء النيل، فانفجر قلبه فجأة ومات تحت ضغط نفسي هائل - بعد ان كان قد ارسل لصديقه وصديق السادات محمود السعدني رسالة يقول له فيها: «لم تتغير مصر يا محمود ولكن الذي تغير هم ناسها، او بمعنى اصح، بعض الناس الذين يطفون على السطح» يقصد السادات بالطبع، ولكنه استعمل الكناية.. لان الخوف من الرقابة لحقه - حتى - وهو في الغربة.

بعد ان استراح السادات بموت الصورة الاصلية لحركاته وسكناته والفاظه، قال لمحمود السعدني في مقابلته له بالكويت سنة ٧٥: رحم الله زكريا الحجاوي كان موته خسارة وطنية.. لقد استقدمت ابنه ليكون من اعضاء حرسي الخاص.. وستحتفل مصر به على احسن وجه.. واحتفلوا فعلا ولكن ماذا يصنع الورد للموتى.

السادات طبع على التمثيل ليس بقولنا.. ولكن بقوله.. فانت اذا قرأت عن سنوات الغضب التي سبقت ثورة ٢٣ يوليو.. ستجد في تسجيل السادات لوقت تعرفه بالفريق «عزيز المصري» الذي احيل الى المعاش بسبب وطنيته وتصديه لقيادة البعثة العسكرية البريطانية، وكان موضع احترام وتقدير الضباط الاحرار، يترددون على منزله ليسمعوا نصائحه وتوجيهاته وينشدوا مشورته في كثير من امورهم، وكان رحمه الله خير عون لهم.

كتب السادات عن كيفية لقائه الاول بعزيز المصري قائلا: عندما اقترحت على الشيخ حسن البنا، طيب الله ثراه - تذكرنا بقوله «السادات التمثيلية» عن عبدالناصر: الله يرحمه!! ان يسير لي مقابلة عزيز المصري، وان تتم المقابلة في مكان مأمون، اعطى لي حسن البنا، عنوان عيادة الدكتور ابراهيم حسن وحدد لي الوقت الذي سألتقي فيه بعزيز المصري.. فذهبت، وصعدت الدرج بخطى ثابتة، ثم تذكرت اني مريض، او لابد ان اكون «مريضا» فربما كان البيت مراقبا بل من المؤكد انه مراقب، اذ كانت المخابرات البريطانية قد علمت بوجود عزيز المصري في داخله، ولاول مرة قمت بدور تمثيلي صغير فصعدت الدرج في تثاقل ولهثت بانفاسي مرتين وطرقت الباب، وطلبت مقابلة الطبيب واعطيت خادم العيادة اجر الزيارة، واخذت منه تذكرة - تذكرنا بما كتبه عثمان احمد عثمان في مذكراته.. كيف فتح السادات محفظته ونقده ثمن شيء طلبه منه قائلا لا ياعثمان انني لا احب شيئا دون نقود! انا حقاني!! - وبعد قليل دعاني الخادم الى غرفة الطبيب، ورأيت لاول مرة وكيل جمعية الاخوان المسلمين، ولم يكن غريبا ان الدكتور ابراهيم، ينتظرني، فقد اخذني من فوري الى مكتب ملحق بحجرة الكشف وادخلني اليه، وفي هذه الغرفة كان عزيز المصري في انتظاري».

نياشين

واذا قال قائل ان هذا الدور التمثيلي الذي اداه السادات في هذه اللحظة، كان من باب الاحتياط المتوجب فاننا نجده مبدأ ثبوت بالكتابة والاقرار عن رغبته التمثيلية كما يقول القانونيون.. تؤكده الادوار التي قام بها بعد الثورة وعليها شهود والاكثر منها عندما قام بالبطولة - او رئاسته للجمهورية - بل انه حاز عنها على نياشين.. فقد تقمص بعد دور ابن البلد «بجلابيته» ودور العمدة والمقرىء والعظيم والفقير.. دور الضابط البحري، وضابط الطيران والشرطة والسلاح.. الخ حتى لقد تساءل البعض: ماذا سيمثل لو انه قام بزيارة وحدة تحديد النسل!؟ الى ان طور ادواره وازياءه معا بالرداء النازي ومشية الوزة.

لقد فاقت النياشين على صدر السادات.. النياشين التي كانت ترصع صدر المارشال «على نيابه» - وهو احد الدراويش او المذهولين المجاورين لمسجد الحسين والمعروف لدى المترددين على هذا الحي - والذي اثبت اغتباط من يرفعون لقب مارشال كتدرج في الاقدمية.. لان الحقيقة كما وضحها المارشال «مونتغمري» لاعضاء الجيش المصري عندما زارهم بعد نكسة ٦٧.. ليقول لهم انه كان بامكان الجيش المصري اكمال مشوار الحرب حتى بعد كسر سلاح الطيران بالالتحام بجيش العدو وشل طيرانه.. وان لقب الجنرال او المارشال لا يلقب به الا من انتصر في معركة.. لان التعبير الصحيح له هو انه جنرال لمعركة بالذات.

المهم ان قدرة السادات في التمثيل فاقت قدرة الممثل «رأفت شلبي» عضو المسرح العسكري.. الذي قام بثورة ضد الثورة سنة ٥٤ .. واحبطت ثورته.. وسارت ثورة سنة ٥٢..

واذا كان الوجه الذي يقوم بدور البطولة في الفيلم التاريخي.. يصبح في الذهن العام وجه الممثل الذي قام بدوره «كيرك دوجلاس هو سبارتاكوس» «اليزابيث تايلور في كليوباترا»، «احمد مظهر هو صلاح الدين الايوبي» فان وجه السادات في فيلم «مصر ٨٠» او حقا انها عائلة «محترمة» كان وجه الممثل «محمد كامل» الذي طالما قام بدور السفرجي في الافلام المصرية.. وصاحب تعبير «زبطة وزمبليطة» الذي التصق في ذهن الناس عندما قاله لمديحة يسري في فيلم «لحن الخلود» بطولة فريد الاطرش وفاتن حمامة.. وكان يتردد في نفوسنا وخواطرنا ونحن نسمع خطب السادات.. واخلاق العائلة.. ولجنة المظالم.. وصينية الاكل.. ونعرف في الوقت نفسه ما تسلكه افراد عائلته من نهب وسلب.

وهذا كله يفسر لماذا كان اهتمام السادات.. بالبحث عن زينات صدقي.. وحسن الامام وغيرهما ليهديهم اوسمة وشهادات التقدير.. لان هؤلاء هم من كان يتمنى، التمثيل امامهم وبارشاداتهم يوم تقدم بصورته ومؤهلاته لمجلة الكواكب.. كوجه جديد.. ولكن الصدفة طوحت به الى مجال اوسع من السينما.. الى الحياة..

لقد ادرك السادات بفطنته ان التمثيل يفوق بجانبيته الهائلة حقبة تاريخية هائلة.. لانه يلتصق بالذهن.. ويمحو من الذاكرة اثر مائة كتاب، فما بالنا وهو يتجه لملايين لا تقرأ الكتب، وليس لديها مناعة المعلومات السابقة، او قدرة ادراك الخطأ والتحريف؟

لقد ظن المراقبون ان ادوار السادات انطلت على الشعب المصري وان السادات وقف فوق التربة المصرية ثابت القدمين.. ولكن الحقيقة ان هذا الشعب كالرمال المتحركة.. يتخيل الطاغية انه يسير عليه برفق ولكن سرعان ما يتحرك هذا الرمل فتبتلع دواماته ما فوقه.

وسبحان الله.. ان يعيش السادات متصورا انه مكرم فيموت وتخرم الرصاصات زيه النازي، موقفا مشية البطة التي سد بها فوق كل الوطنيين والشرفاء لا سيما في اواخر ايامه.. والله وحده يعرف اين وضعه في طبقاته